مغشوش، بل بفعل تاريخي يستعيد الوجه الحقيقي ويجعل من الاسم مرآة حقيقية لماضي الانسان وحاضره وأفقه المرغوب، لذلك فإن الفلسطيني يتعرّف بما هو سلبي فيه، ويُنادى بنعت يذكّر بما هو ناقص في وجوده الانساني: «وتمد المرأة صوتها الارعن وتقول بلهجتها المطوطة: وينك يا ولد قل 'للفلسطيني' ان...»، و«أحس 'الفلسطيني'، في وقفته المرتعشة خلف الطاولة، بالصوت المطوط ينفذ من سترته إلى جيبه الداخلي فيحيل البطاقة إلى مزق، مزق صغيرة، تخشخش في جيبه في غير عنفوان». تعتبر هذه القصة إحدى افضل القصص التي عبّرت عن غربة الفلسطيني المتعددة الوجوه: غربته عن ذاته، وعن وطنه وتاريخه والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، غربة كئيبة تدفع الانسان إلى التنكر لذاته، والابتعاد عن وجهه الحقيقي. وتذكّرنا هذه القصة ليس بوضع الفلسطيني فحسب وإنما بوضع كل انسان مضطهد يلغي وجهه حتى يصبح مقبولاً لدى الآخرين، اي انه يحاول انتزاع اعترافهم به عن طريق عدم الاعتراف بنفسه، إذ ان الآخرين ينكرون عليه «ذاتيته» ويمنعون عنه اسمه الخاص، وينادونه بلقب عام، يعلن عن عدم الاعتراف به، وعن تغييبه في اسم سلبي الدلالة هو: الفلسطيني او الارمني او الزنجي... وفي ثنايا الاسم السلبي، يستيقظ الاحساس بالأنا وبالجذور، ويندثر كل طموح لحل فردي منسلخ عن المجموع، إذ ان نعت «الفلسطيني» لا يرسم حالة فردية او حالات فردية بل يمثّل وضع شعب بأكمله.

كتبت سميرة عزام هذه القصص في حدود وعيها للعالم، وفي الاطار الذي تعي فيه الواقع الاجتماعي، فجاءت هذه القصص معبّرة عن الواقع الفلسطيني، ومعبّرة في اتساقها عن العلاقة بين وعي الكاتبة وكتابتها. وحين ابتعدت سميرة عن «الجوهر الانساني» الذي تدور حوله، وحاولت الاقتراب من التاريخ والتحديد، أضاعت شيئاً من صوتها المتميّز، ومن شكل تعاملها مع الواقع، لأن هذا التعامل لم يأت متوافقاً مع وعي الكاتبة بل جاء امتداداً لعامل خارجي، ولتجربة لا تستطيع الكاتبة التعبير عنها، او لنقل إن وعي الكاتبة المحكوم بمقولة «الانسان العام» وبجملة المقولات الاخلاقية لا يستطيع التعامل مع ما هو متميّز وتاريخي، وإن حقّق هذا التعامل فإن الكتابة القصصية تأتي غير متوازنة او غير متسقة. للتدليل على ذلك، نأخذ قصة: «في الطريق إلى برك سليمان»؛ حيث لا تتواءم النهاية مع البداية، فالبداية هي مأساة قرية فلسطينية يعوزها السلاح في قتالها ضد العدو، وعوز السلاح ينتهي في ضياع الوطن، لأن معنى الوطن والانسان هو معنى السلاح الذي يدافع فيه الانسان عن الوطن: «فكأن الرشاش الفارغ حسّسها بأن بطولة حسن ليست إلا تهريجاً صبيانياً. وأن طوابير الشباب التي تعب على تدريبها ليست اكثر من دمى في يد طفل عابث»(١٤). على الرغم من هذه البداية التي تحكي «قدر» مجموع بشري، وتحكي فيه عن «درس تاريخي»، فإن هذه القصة سرعان ما تبتعد عن الوضع المعقّد الذي بدأت به لتصل إلى وضع ميلودرامي يحكي مصرع طفل صغير ساعة «الخروج». نقول هنا، ربما أرادت الكاتبة استعمال الرمز فجعلت من الطفل الضائع نظيراً للأمل المفقود او للوهم الذي كان قائماً قبل الخروج، مع ذلك فإن بناء الرمز لم يتم في الإطار المطلوب، فالقصة تبدأ بـ«الكل» وتنتهي بـ«الفرد»، تبدأ بـ«التاريخ» وتصل إلى